# الباب العاشر

## « مدام دى مانتينون »

كان يعيش فى بلاط الملكة آن دوتريش شاعر مرح اسمه سكارون أصيب بأمراض مختلفة فتقوس جسمه واحدودب ظهره وتخشبت ساقاه حتى كان منظره يثير الضحك والسخرية كما كان هو نفسه يجد من حالته الأليمة مادة للمرح والتهكم كما كانت الملكة تعطف عليه وتجد فى أحاديثه وأشعاره الساخرة مايسرى عنها وما يضحكها فرتبت له معاشا شهريا يتقاضاه مدى الحياة .

كانت لهذا الشاعر زوجة جميلة فاتنة من أصل نبيل تدعى مدام سكارون وكانت بحكم وجودها فى البلاط تغشى حفلات فرساى وغير فرساى من القصور الملكية الجميلة ، وكانت تمتاز بأناقتها وعذب حديثها وسعة معلوماتها ووفرة ذكائها .

وعند ماعاد ملكا فرنسا إلى باريس بعد أن عقد قرانهما فى مدينة جان دى لوز ، وقفت مدام سكارون فى شرفة فندق « أومون » بباريس بعد أن تحلت بأحسن ماعندها من ملابس وجواهر تشاهد موكب الملكين الرائع الذى كان يشق طريقه بين الجماهير

فالمتراصة وهى تهتف من الأعماق للملك والملكة التى كفلت لهم بزواجها السلام والسعادة ، وكانت ترمق الملكين بنظرات تنم عن الإعجاب والغيرة .

توفى سكارون وترك زوجته بلا عائل فعطفت عليها الأسرة المالكة وأسندت اليها وظيفة فى البلاط أخذت تؤديها بكل أمانة وإخلاص حتى حازت رضاء الملك لويس الرابع عشر فقرر منحها لقب مركيزة دى مانتينون والأملاك الخاصة بهذا الإسم .

وفى ٣٠ يونيه سنة ١٦٨٣ توفيت ملكة فرنسا ، ولم يحدث موتها أدنى ضجة فلقد كانت حقاً هادئة فى الحياة وفى الممات ، ولم يتأثر من هذا الحادث إلا الملك وولى العهد ، وأعلن الحداد الرسمى فى البلاط فارتدى الجميع ملابس الحزن ، وتوقفت الحفلات فى فرساى فساد فيها والوجوم .

وانتهت فترة الحداد فعادت الحالة إلى مجراها الطبيعى وسارت الحفلات على نظامها المألوف وإنما لم تأخذ طابعها المعروف ونشاطها المأثور وروعتها الخلابة ، لقد طرأ عليها تغيير شامل كما فقدت بعض الشخصيات المرحة التى كانت تضفى عليها بهاء وسحرا مثل الآنسة دى فاليير التى دخلت دير الكارمليت بالقرب من فال دى جراس ، ومدام دى مونتسبان لأنها فقدت خطوتها ، كما أن الممثلين لم يعودوا تمثلون بما عهد فيهم من حماس ونشاط فلقد انتابهم كثير من الفتور والخمول .

فى هذا الوقت بلغ لويس الرابع عشر الخامسة والأربعين ، وكان يشعر بجسامة العبء الملقى على عاتقه ، وأخذ يحس بآلام الوحدة بالرغم من أنه كان يسير فى حياته اليومية على برنامج معين يشمل العمل والنزهة لايترك له وقتاً للاستسلام للحزن فكان فى ساعات الألم النفسانى يجد لدى مدام دى مانتينون مايرفه عنه وما يؤنسه لأنها كانت شديدة الذكاء ، تمتاز بلباقة مدهشة فتعرف كيف تأثر بحديثها القلوب والأسماع فتوطدت صداقتها مع الملك ونالت الحظوه وزالت الكلفة بينهما حتى اعتادت أن تطلب منه من وقت لآخر خدمات خاصة ومنح وعطايا كان بالطبع لايتأخر عن تأدية هذه الطلبات ، مما أثار دهشة البلاط وخبرته فى معرفة سر هذه الصداقة الوثيقة .

ولقد تحولت هذه الدهشة إلى ذهول تام عندما أعلن فى يوم مامن سنة ١٦٨٤ أن لويس الرابع عشر تزوج مدام مانتينون .

لم يكن العثور فى السجلات والوثائق الرسمية عن تاريخ هذا الزواج بالضبط ، لأن الموضوع أحيط بتكتم شديد فكل ماعرف أن كبير أساقفة باريس قام بعقد القران فى كنيسة قصر فرساى بحضور أربعة أشخاص فقط هم الأب لاشيز كاهن الملك الخاص ، والمركيز مونشفرويل من البلاط وبونتان خادم الملك الخاص ، ومانون وصيفة المركيزة دى مانتينون الخاصة ، وتم الزواج بكل هدوء وسكينة .

لم يتغير نظام العمل فى فرساى إذ لم يحدث سوى أن خصص مكان للمركيزة يجاور مكتب الملك ، وعندما سأل الوزراء مليكهم عن

المكان الذى يجتمعون فيه بعد العشاء لعرض الرسائل والمناقشة فيها أشار اليهم بكل بساطة إلى غرفة المركيزة .

وقع الملك تحت تأثير مدام دى مانتينون ، فكان لايستطيع فراقها ، ولهذا كان يمضى أوقات العمل فى حجرتها . ويستقبل الوزراء وكبار الموظفين ويناقشهم ويفحص معهم كل شئون الدولة ، وكانت هى تجلس على مقعد وثير تتسلى بعمل ما ، وكانت لاتشترك فى المناقشات الخاصه بمسائل الدولة على أن الملك كان يستشيرها فى كل شىء يعرض عليه بأن يلتفت إليها ويسألها قائلا «ماهو رأيك الصائب»

مدام دى مانتينون

وكان يطلق عليها هذا الإسم تكريماً لها واعترافا ببعد نظرها ودقة حكمها على الأمور وتقديراً لآرائها القيمة الصائبة ، وكانت تعمل دائما على اتباع سياسة التهدئة ، تمكينا لصفاء العلاقات .

ووجهت اهتمامها إلى الأعمال الخيرية حتى يشعر البؤساء المحتاجون أنها تهتم بهم وتتفانى فى خدمتهم ، ولما كانت هذه الأعمال من اختصاص

الكنيسة فكانت تشترك فى مجالس رجال الدين لمناقشة شئون الكنيسة وأعمال البر .

وأنشأت فى « سان سير » مدرسة خاصة لتثقيف بنات الأشراف وكان الملك نفسه يوجه اهتماما شديدا لهذه المدرسة ، فكان يبحث مع المركيزة كل أمور المدرسة ويتناقش معها طويلا فى مواضيع البرامج والمواد التى تدرس فيها ، واختيار المدرسات وتحديد زى خاص للطالبات ، وكان يذهب كثيراً إلى هذه المدرسة لإعجابه بها فيتفقد قاعات الدراسة ، وحجرات النوم وسير العمل ، ويستمع إلى مدام دى مانتينون وهى تسدى نصائحها الثمينة إلى الطالبات وتثنى على المجدات منهن وتكافىء الممتازات وتزجر المهملات .

ومما يجدر ذكره أن مدرسة سان سير ، كانت بفضل عناية مدام دى مانتينون وإشراف الملك ، على غاية الروعة والأبهة ، فلقد قسمت الطالبات إلى فئات . وخصص لكل فئة منهن زى ومكان خاص طليت جدرانه بلون هذا الزى ، كما طليت المقاعد والنوافذ بنفس اللون . وعلقت الخرائط والأدوات بشرائط من نوع أزياء الطالبات ، لقد كان كل مافيها بديع يدل على ذوق فنى ممتاز يدعو إلى الإعجاب والثناء . فلا عجب إذا كان لويس الرابع عشر المشهور بحبه وتقديره للفن يكثر من الذهاب إلى المدرسة ويمضى فيها أوقات طويلة .

وطلبت مدام دى مانتينون من المؤلف راسين — وكان قد ترك

المسرح والتأليف وقنع بوظيفة فى البلاط — أن يؤلف قصة أخلاقية تستطيع طالبات سان سير أن تمثلها على المسرح فى المدرسة ، وفى الوقت نفسه يجدن فى قراءتها دروسا فى الوطنية والأخلاق والحياة فيستفدن منها من الناحية الثقافية ويألفن التمثيل .

أطاع « راسين » ، وعكف من جديد على الكتابة والتأليف ، فكتب مسرحيته المشهورة « استر » التى اقتبسها من القصة المعروفة فى التوراة .

وتولت مدام دى مانتينون توزيع الأدوار على الطالبات اللاتى تصلحن لها ، وأخذت مع المؤلف راسين على تمرينهن على التمثيل وعلى إعداد كل ما يلزم له ، وبذلت مجهودا كبيرا لكى تنجح الفتيات اللاتى لم يتجاوزن الخامسة عشرة فى الإلقاء والتمثيل فتحزن الإعجاب والمديح .

وعكف الرسام « لبران » على إعداد اللوحات والمناظر الملائمة لكل فصل من فصول المسرحية ، كما عكف الفنانون على إعداد الملابس اللازمة لكى تمثل القصة بكل روعة وأبهة ، كما تقرر أن تظهر كل فتاة على المسرح وهى متحلية بالملابس والجواهر التى كانت تتحلى بها الشخصية التى تمثلها ، فاستدعى الأمر استعارة جواهر لويس الرابع عشر الخاصة التى كان يتجمل بها فى الحفلات والرقص لكى تتألق بها الفتاة التى تمثل دور الملك اسوريوس ملك آشور ، فى الوقت الذى حدثت فيه وقائع القصة ، كما استعيرت جواهر أخرى لبطلة دور « استر » الفتاة اليهودية التى أنقذت شعبها بإخلاصها للملك .

واختيرت للحفلة إحدى حجرات نوم الطالبات الكبيرة ، فأقيم فيها مسرح ووضعت فيها المقاعد الوثيرة للمدعوين من أباء الطالبات والعظماء .

وفى اليوم المحدد ، اختبأ راسين خلف الستائر لتنظيم ظهور الممثلات ، وقام بوالو بدور الملقن ؛ وجلس لويس الرابع عشر بجوار باب مكان الحفلة لمراقبة دخول المدعوين ومنع دخول من لم يدعى رسمياً لشهودها .

ونجحت الحفلة نجاحا باهراً وحظيت الطالبات بإعجاب منقطع النظير ، وصفق لهن المدعوون تصفيقاً حاداً متواصلا ، فشجع هذا النجاح مدام دى مانتينون على أن تقرر إعادة التمثيل مرة أخرى وعلى أن تطلب من راسين تأليف مسرحية أخرى على غرار مسرحية استر ، فألف مسرحية « أتالى » ووزعت أدوارها على الطالبات .

ولكن حدث أن الطالبات أهملن دروسهن وواجباتهن المدرسية ولم يعدن يهتممن إلا بالتمثيل والإلقاء والمسرح ، كما دبت بينهن الغيرة والحسد فكثرت بينهن المشاحنات والمنافسات فقررت مدام دى مانتينون وقف تمثيل مسرحية استر مرة أخرى ، والاكتفاء فى مسرحية أتالى بإلقاء الأدوار فى غرفتها بدون مناظر وبغير حضور مدعوين أو مظاهر أبهة .

* * *

ومع هذه الأعمال المفيدة أخذت مدام دى مانتينون تتدخل رويدا رويدا فى شئون الدولة وفى توجيه سياسة الملك . حتى أصبح لها تأثيراً ملحوظاً فى كل عمل من الأعمال ، وخضع لها الملك خضوعا تاما فلم يعد ينفذ أمراً ما إلا بعد موافقتها

ولقد ظل لويس الرابع عشر إلى لحظاته الأخيرة يعمل بمشورة مدام دى مانتينون .

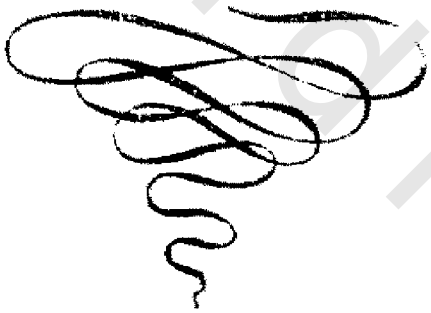

obeikandl.com

# الباب الحادي عشر

## الخلاف الديني

ظلت وحدة الأمة التي توطدت دعائمها منذ انتهاء حرب الفروند، سنة ١٦٥٢ متماسكة أشد التماسك ، ولكنها بدأت سنة ١٦٨٥ تنفصم عراها لأن مسألة قديمة كان المفروض أنها انتهت الى الأبد ، عادت إلى الظهور فجأة ، ألا وهي الخلافات الدينية .

يعود موضوع الخلاف الديني في فرنسا إلى القرن السادس عشر ، حين ظهر الهيجونوت ( أو البروتستانت ) ، فأدى ظهورهم إلى تقسيم فرنسا إلى وحدتين متنابذتين وهما الهيجونوت والكاثوليك. والمعروف أن الدين الرسمي لفرنسا هو المذهب الكاثوليكي ، فأخذ الكاثوليك وهم الأغلبية الساحقة يقاومون الهيجونوت مقاومة عنيفة فقامت بين الطائفتين حرب أهلية شعواء سفكت فيها الدماء وحدثت مذابح رهيبة ، وخسائر مروعة وفتن ودسائس ألحقت بالبلاد أضرارا فادحة في كل مرافقها ، وانتهت هذه الحالة الأليمة التي استمرت وقتا طويلا بإصدار مرسوم نانت سنة ١٥٩٨ في عهد هنري الرابع ، وبمقتضى هذا المرسوم منح الهيجونوت عدة امتيازات منها : حرية

العبادة . وحرية الإقامة ، وهيئة قضائية خاصة ، وأماكن خاصة أطلق عليها اسم مواطن الأمان .

لم يجد لويس الرابع عشر شخصيا أى اعتراض على هذه الامتيازات فى بادىء الأمر لأنه لم يكن متعصبا من الناحية الدينية بدليل مساعيه المتواصلة لحماية حريات الكنيسة الجاليكانية .

وإنما مع تطور الأحـــوال السياسية ، وإظهار بعض الدول البروتستانتية عدائها السافر لفرنسا . وميل البروتستانت الفرنسيين إلى هذه الدول المعادية وعلى الأخص هولندا ، ووجود علاقات بينهم وبينها ، خشى الملك أن يترتب عن ذلك قيام خلاف جديد بين عنصرى الأمة يؤدى إلى حرب أهلية جديدة ، فرأى أنه لابد من اتخاذ قرار حاسم فى هذه المسألة الشائكة ، فاستشار الوزراء ورجال الدين والبلاط وأعضاء البرلمان ، وبعد مفاوضات ومناقشات طويلة انتهى الرأى إلى ضرورة الغاء امتيازات الهيجونوت ، وبناء على ذلك وقع لويس الرابع عشر فى أول أكتوبر سنة ١٦٨٥ قرارا بإلغاء مرسوم نانت .

وقضى هذا القرار أيضا بإزالة مواطن الأمان ، وهدم معابد البروتستانت وحرمانهم من حرية العبادة ومزاولة شعائرهم الدينية ، وطرد رجال الدين البروتستانت وإرغام البروتستانت على تربية أولادهم على مبادىء الديانة الكاثوليكية ، وعلى اتباع طقوس وشعائر الكنيسة الكاثوليكية ، وعلى الخضوع لنظمها فيما يتعلق

بالأحوال الشخصية ، وعلى إلغـــاء القضاء الخاص بالبروتستانت وإخضاعهم للقانون العام . وبذلك يكون جميع السكان وحدة واحدة تتبع نظاما واحدا فى جميع شئون الحياة المدنية والدينية .

لم يكن هذا الإلغاء فى نظر الملك إلا عملا سياسيا سليما يرمى إلى تهدئة النفوس فى داخل البلاد وتوطيد وحدة فرنسا التى كانت شغله الشاغل .

ولكن الحوادث نجمت عن قرار أول أكتوبر سنة ١٦٨٥ برهنت على أن ملك فرنسا ارتكب خطأ شنيعا بالغا ئه مرسوما كان يمكن تعديله ، لأن مواد هذا القرار فسرت فى أنحاء البلاد بأنها اضطهاد دينى عنيف فرأى الهيجونوت أن يغادروا فرنسا ويهاجروا إلى الدول البروتستانتية ، وكان بينهم كثير من كبار رجال الأعمال والمال والصناعة ، فصفوا أملاكهم ورحلوا إلى الخارج حاملين معهم أموالهم الوفيرة ، وقد أدت هذه الهجرة إلى شل الحركة الاقتصادية والصناعية فى فرنسا فساد الارتباك والفوضى فى كل ميادين العمل والإنتاج والنشاط البشرى ، وفى الوقت نفسه أدت الى نشاط صناعى وتجارى واقتصادى كبير فى الدول التى لجأ اليها المهاجرون الأغنياء وعلى الأخص هولندا والمانيا ، حتى إن نمو الحركة الصناعية فى برلين بدأ من تاريخ إقامة الهيجونوت الفرنسيين فيها .

وأما الفقراء الذين لم يستطيعوا المهاجرة فقد لجأوا الى الجبال واعتصموا فيها وألفوا عصابات قوية لشن غارات على المدن والقرى

والقيام بحرب أهلية مما اضطر الحكومة إلى أن تخصص قوات كبيرة من الجيش للقضاء عليها. واستمرت الحرب بين الطرفين سنوات طويلة رخصت فيها الأرواح وانتهت بانتصار قوات الحكومة دائما بعد أن تحملت خسائر فادحة .

وبمقارنة الحالة الاقتصادية فى فرنسا قبل إلغاء مرسوم نانت بما آلت اليه بعد الإلغاء يتبين أنها تأثرت تأثرا عظيما فقد اضطربت اضطرابا شديدا فقلت إيرادات الدولة وضعفت الحالة المالية فى البلاد وفقد الشعب كثيرا من موارده المادية الهامة التى كانت السبب المباشر فى ارتفاع مستوى معيشته .

ولقد كانت حالة اليسر والرخاء قبل إلغاء المرسوم موضع دهشة ، وتعجب السفراء الأجانب ، فكانوا يبعثون إلى دولهم بتقارير تفيض بإعجابهم بحالة الشعب الاقتصادية ، وقد كتب مرة سفراء البندقية وفلورنسا فى تقاريرهم ما يلى :

« يعيش كل فرد على غلة أرضه ولا ينفق شيئا ، فالبلاد متخمة وغنية » .

وكتب ڤولتير فى كتابه عن عصر لويس الرابع عشر هذه الفقرة

« تكاد لا توجد مملكة فى العالم يعيش فيها المزارع والفلاح فى حالة من اليسر والتنعم كما يعيش فى بعض مقاطعات فرنسا ، كما أن فى المدن ثراء وافر قائم على التجارة والصناعة مما أدى إلى كثرة الإقبال على الملاهى والمسارح حتى أصبحت دائما مزدحمة ازدحاما شديدا ، ويذهب

محبو الكوميدى الى مسرح فندق بورجونيا ، كما يذهب محبو التراجيدى إلى مسرح الپاليه رويال . وأما المغرمون بالموسيقى فيذهبون إلى الأوبرا الملكية ، وتوجد مسارح وملاهى كثيرة أخرى تناسب ذوق كل إنسان وحالته المالية وهى دائما عامرة زاخرة روادها .

* * *

استاءت الشعوب البروتستانية فى أوربا عامة وفى هولندا خاصة من تصرفات لويس الرابع عشر بإلغائه بجرة قلم امتيازات مقررة للبروتستانت فى فرنسا لم يترتب عنها أى اخلال بالأمن أو بشئون الدولة واعتبرت إلغاءه لمرسوم نانت دليلا على بغض وعداء ملك فرنسا لها .

ففى هولندا أخذ جيوم دورانج يؤلب رعاياه على لويس الرابع عشر ، ويحثهم على محاربته بكل قوة لأنه أصبح العدو الألد الذى يتعين على كل بروتستانتى أن يقتص منه بلا رحمة ، كما أخذ يؤلب أيضا دول أوربا على فرنسا فاستطاع أن يعقد معاهدات تحالف على الأمبراطور وملكى أسبانيا والسويد والأمراء الألمان فألفوا معا حلفا قويا باسم حلف أوجبرج لمحاربة فرنسا وكسر شوكتها .

كان لويس الرابع عشر فى ذلك الوقت ، يميل — وفقا لرأى مدام دى مانتينون ، إلى اتباع سياسة التهدئة ، فبذل كل ما فى وسعه لمنع نشوب الحرب حتى إنه لم يغتنم فرصا كثيرة أتيحت له القيام بهجوم مفاجىء على هولندا وغيرها قبل أن تتم استعدادها للحرب ،

كان يستطيع به أن ينتصر انتصارا حاسما ويحقق أغراضا عظيمة الفائدة للوطن ، ولكنه فضل أن ينتظر نتائج مساعيه السلمية وظل عظيم الأمل فى إمكان تجنب الكارثة ، وكاد هذا الأمل أن يتحقق لولا أن حدث حادث فجائى جعل نشوب الحرب فى أوربا أمرا واقعا ، فلقد قامت ثورة جامحة فى انجلترا بتدبير جيبوم دورانج ، غرضها التخلص من ملك انجلترا وتنصيب جيبوم دورانج ملكا عليها ، وكان ملك انجلترا شارل الثانى قد توفى فتبوأ العرش شقيقه شارل الثانى ، ونجح الثوار فى تنفيذ الخطة المرسومة فطردوا شارل الثانى من البلاد فتولى حكمها جيبوم دورانج ، وبذلك أصبح السيد المطلق فى الجزائر البريطانية وهولندا .

وفى الواقع أن ملك فرنسا لم يكن يرضى بأى حال من الأحوال أن يرى خصمه العنيد جيبوم دورانج يحكم دولتين كبيرتين فى أوربا ، لأن فى ذلك تزعزع التوازن الدولى والقضاء على فرنسا وتقويض دعائم السلم فى أوربا ، فلم يعد يفكر فى سياسة التهدئة ولم يشأ أن ينتظر نتيجة المساعى السلمية فأعلن حالة الحرب وقرر التعبئة العامة ورحلت الجيوش الفرنسية إلى ميادين القتال وعلى رأسها الملك ، وكانت قد زودت بأسلحة جديدة متنوعة .

أظهرت حرب حلف أوجسبرج قوة الأسلحة الفرنسية الجديدة فاستطاعت بها الجيوش الفرنسية أن تتفوق على الأعداء فكسبت معارك متعددة واستولى الملك بنفسه على « مونز » و « نامور » ، كما

هزم الماريشال دى لوكسمبرج جيوش الحلفاء فى موقعة « فلوروس » وغنم أكثر من مائة علم أرسلها إلى باريس حيث علقت على كاتدرائية نوتردام .

وأما « لوڤوا » فمع أنه كان قد فقد حظوته لدى الملك بتأثير مدام دى مانتينون لمعارضته لآرائها ، فقد أظهر بسالة فائقة فى هذه الحرب ، ومع ذلك فقد غضبت عليه مدام دى مانتينون غضبا شديداً فنسبت اليه أنه يستعمل أقسى ضروب الوحشية والهمجية مما يتنافى مع قواعد الإنسانية والعطف اذ يلجأ فى كثير من الأحيان إلى تدمير مناطق آهلة بالسكان لكى لايجد العدو مأوى أو طعام وكان من نتيجة معارضة مدام دى مانتينون لأعمال لوڤوا أن السكان الذين فقدوا أملاكهم عوضوا تعويضا سخيا بأن نقلوا إلى الألزاس وإلى مقاطعة فرانش كونتيه حيث منحوا أملاكا جديدة مع إعفائهم من الضرائب لمدة عشر سنوات .

استمرت مدام دى مانتينون تناوىء « لوڤوا » وتحمل عليه وتعمل على إثارة الملك عليه حتى تألم ألما نفسيا شديدا من هذه الحالة الشاذة فأساء التصرف فى مسألة دقيقة ربما عن غير قصد أوغر صدر الملك واستاء كل الاستياء ذلك أن « ڤيكتور اميدى » دوق ساڤوى الذى سبق ذكره ، كان يفضل التحالف مع فرنسا وتوطيد علاقات الصداقة والإخاء معها على الانضمام إلى حلف أوجسبرج بالرغم من الوعود المغرية وطرق الإقناع والترغيب والعروض السخية التى عرضها عليه

جيبوم دوارانج لكى ينضم إلى الحلف ، واستغلت الجيوش الفرنسية فرصة بقاء ڤيكتور اميدى هذا وفيا لفرنسا فاجتازت أكثر من مرة ولايته وأملاكه دون إذن منه أو حتى دون إخطاره وتصرفت فيها كأنها فى بلاد معادية . فاحتج الدوق على هذه الأعمال المنافية لأبسط قواعد المجاملة وكتب الى ڤرساى طالبا وقف الأعمال العدائية فى أراضيه ،وعرضت رسائله على «لوڤوا» باعتبار أنه المسئول عن أعمال الجيوش ، ولكنه لم ير من المناسب عرض الأمر على الملك ، فلما لم يجد الدوق أية نتيجة لمطالبه العادلة المشروعة ،بعث برسالة شخصية إلى لويس الرابع عشر ، ذكر فيها أنه إذا استمرت معاملته على هذا المنوال فإنه سيضطر بكل أسف الى أن يستجيب الى توسلات الحلفاء فينضم إليهم فى محاربة فرنسا ، ووصلت هذه إلى لوڤوا فاحتفظ بها ولم يعرضها على الملك كما يقضى الواجب .

فلما علم لويس الرابع عشر بالموضوع لم يجد له تفسيرا سوى الخيانة العظمى من وزيره ولكنه كظم غيظه نظرا للخدمات الجليلة التى أسداها له لوڤوا فخيب بذلك ظن البلاط الذى توقع أنه سيبعث بالوزير إلى الباستيل ، إلا أنه حقد عليه وظهرت نتيجة هذا الحقد الدفين فى يوم كان فيه الملك فى حجرة مدام دى مانتينون فقال له لوڤوا أنه أمر بحرق مدينة تريڤ ، فاستاء الملك من هذا التصرف وما كان منه إلا أن أمسك بماشة رآها على المكتب وحاول أن يضربه بها لولا أن مدام دى مانتينون أسرعت بالوقوف بينهما وهدأت الملك ،

وفى الوقت نفسه وقع لوڤوا مغشيا عليه لفرط تأثره واتضح أنه أصيب بشلل نتيجة هزة عصبية .

مدام دى مانتينون تحول بين لويس ولوڤوا

انضم فيكتور أميدى دوق ساڤوى إلى حلف أوجسبرج وتولى قيادة جيوش الحلفاء فى ساحة ايطاليا ولكن الماريشال كاتينا قائد الجيش الفرنسى فى هذه الساحة هزمه هزيمة منكرة فى موقعة ستافارد.

وفى ساحة « لامارسای » حيث ظهرت « السونكى » لأول مرة فى أطراف البنـــادق الفرنسية واصل الماريشال دى لوكسمبورج انتصاراته على جيوش جييوم دورانج التى كان يقودها بنفسه .

وبعد أن أعاد جييوم دورانج تنظيم جيوشه ومواقعه ، قام بهجوم مفاجىء على الجيش الفرنسى فى شتاينكرك ، وكان الماريشال دى لوكسمبرج قد أصيب بحمى شديدة لم يستطع معها إعداد الخطط وتدبير الأمور كعادته ولكن بالرغم من كل هذه العوامل فقد انتصر

الجيش الفرنسى انتصارا رائعا فى هذه الموقعة ، كما سجل بعد وقت قصير انتصاراً باهرا فى موقعة « نيرفندن » ومما يجدر ذكره عن هذه الموقعة أن جييوم دورانج عندما رأى الفرسان الفرنسيين يقاتلون بعناد وبشجاعة منقطعة النظير تحت وابل من نيران مدافع الأعداء دون أن يهدأوا أو يكلوا لحظـــة واحدة صاح قائلا : ياله من شعب عنيد .

ونزلت القوات الفرنسية فى ايرلندا للعمل على إرجاع جاك الثانى ملك انجلترا المطرود إلى العرش ، ولكن جييوم دورانج كان قد سبقه اليه رسميا باسم جييوم الثالث ملك الجزائر البريطانية .

وتولى قيادة هذه القوات ضابط اسمه لوزون كان قد غضب عليه لويس الرابع عشر لأسباب شخصية تتعلق برغبته فى الزواج من إحدى أميرات الأسرة المالكة فأمر بسجنه فى الباستيل ، وعندما نشبت هذه الحرب عفا عنه وعهد إليه بقيادة الجيش المتوجه إلى ايرلندا ، ولكنه أساء التصرف لجهله بشئون القيادة فهزم فى « بوين » وارتدت القوات الفرنسية وأخذت معها الملك الطريد .

وعلى حدود الألب كان جيش كبير بقيادة دوق ساڤوى على وشك أن يغزو فرنسا ، ولكن حدث أن فتاة تدعى « دى لاتور دوبان » علمت بطريق المصادفة من سكان الجبال أن هذا الجيش يتقدم فى أماكن غير محروسة فما كان منها إلا أن أثارت حماس الرجال وسارت على رأسهم لمحاربة العدو واستطاعت بمعجزة غريبة من صد الغزاة

وانقاذ فرنسا ، ولقد نالت هذه الفتاة من لويس الرابع عشر كل ما تستحق من اكرام وتمجيد على هذا العمل الجرىء ورتب لها معاشا شهريا على اعتبار أنها من الرؤساء الحربيين الشجعان ، ولما توفيت وضعت صورتها ووسامها فى كنيسة سان دنيس بجانب صورة چان دارك البطلة الفرنسيه المشهورة التى قامت من قبل ذلك بمائتى عام تقريبا بمثل هذا العمل الجرىء بإنقاذ فرنسا من الانجليز

وفى نفس الوقت توجت الأساطيل الفرنسية بأكاليل المجد والفخار وكان يقودها فى مختلف المعارك البحرية القواد : دوكين ، وتورفيل ، وجان بار ، ودوجاى تروان ؛ فقد هزموا الأساطيل القوية لأعظم الدول البحرية فى ذلك الوقت ، وكانوا على وشك أن يحرزوا السيادة التامة على البحار لولا هزيمة أسطول « تورفيل » فى موقعة «لاهوج البحرية ، ولم تحدث هذه الهزيمة لضعف القائد البحرى ولكن لأنه قاد المعركة بناء على أوامر قاطعة من الإدارة البحرية التى كان على رأسها بونشارتران الذى كان يجهل كل شىء عن الملاحة وعن الأساطيل وعن المعارك البحرية .

وعبثا حاول الانجليز والهولنديين معا أن يهاجموا « برست » لينزلوا فيها ، وعبثا حاولوا إحراق ميناء « دييب » فقد صدوا كل مكان بخسائر فادحة حتى إن انجلترا فقدت وحدها فى هذه الحرب ٤٢٠٠ سفينة ما بين حربية وتجارية وثلاثين مليون جنيه استرلينى .

وبالرغم من هذه الانتصارات فى البر والبحر ، كان لويس الرابع

عشر يريد الصلح لأنه يترتب دائماً عن الحرب رد فعل شديد من الناحية المالية بسبب النفقات الطائلة مما يؤدى إلى ضرورة فرض ضرائب تثقل كاهل الشعب أكثر مما يجب وتزيد فى أعبائه والتزاماته .

فبعد مفاوضات قصيرة عقد الصلح مع فيكتور اميدى ، أقل الحلفاء عناداً ، سنة ١٦٩٦ .

وبعد استيلاء الفرنسيين على برشلونه شعرت اسبانيا بعجزها عن الاستمرار فى الحرب فطلبت الصلح ولم تلبث أن حذت حذوها باقى الدول المتحالفة فى حلف أوجسبرج فعقد بذلك صلح رشفيك سنة ١٦٦٧ ، وكان صلحا معتدلا إذا قيس بانتصارات الجيوش الفرنسية ، لأن لويس الرابع عشر لم يكن يبغى إلا توطيد فتوحاته السابقة .

# الباب الثانى عشر

## مشكلة عرش اسبانيا

عكف الملك مرة أخرى على تنظيم الشئون المالية التى اضطربت بسبب الحروب الطويلة وما تطلبته من نفقات كثيرة. ولم يجد أمامه رجلا مثل «كولبير» أو شخصا موهوبا مثله ليعمل على وضع الأمور فى نصابها، كما رأى الجو السياسى على وشك الاضطراب وأن الأحوال الدولية تنذر بالخطر. لأن شارل الثانى ملك اسبانيا كان فى حالة النزع الأخير ومن المتوقع أن يترتب على وفاته مشاكل خطيرة لوراثة عرشه قد تؤدى إلى اندلاع حرب جديدة، فصمم على أن يبذل كل ما فى وسعه لمنع قيام أى حرب، لأن فرنسا كانت فى حاجة إلى هدوء واستقرار، وإذا نسى الحاجة الملحة فلن تنساها مدام دى مانتينون لأنها ملمة بكل ما يهم الدولة، وكان فى الوقت نفسه لا يجهل أن الدول الأخرى ليست أحسن حالا من فرنسا، فكان لزاما عليه والحالة أن يستمع إلى نداء العقل فيتساهل إلى حد كبير حتى أنه اقترح مقدما تقسيم الوراثة التى لم تعلن بعد، ولكنه اصطدم بمعارضة لا تلين من كل الدول التى يهمها الأمر وعلى الأخص من امبراطور ألمانيا، لأنه كان يرجو أن يضع تاج اسبانيا على رأس ابنه ليبعث إلى الوجود امبراطورية شارلكان

العظيمة لاستعباد أوربا مرة أخرى ، وكان الهولنديون والانجليز متحالفين معا فى كراهية فرنسا والنقمة عليها فلم يدركوا هذا الخطر ولم يرضوا نتيجة بغضهم الشديد لفرنسا أن يتفاهموا معها ويتفقوا على وجهة نظرها .

وفى أول نوفمبر سنة ١٧٠٠ وقع الحادث المنتظر ، فقد توفى شارل الثانى ، وكان قد قرر فى وصيته منح تاج اسبانيا إلى دوق « أنجو » شقيق دوق بورجونيا الذى سبق ذكره والحفيد الثانى للويس الرابع عشر

انتشر الخبر بسرعة البرق فى كل أوروبا ، وعقد كل ملك مجلساً مع وزرائه لبحث الموضوع واتخاذ قرارات لمواجهة ما يتمخض عن وصية شارل الثانى المتوفى ، إذا ما قبلها لويس الرابع عشر .

وفى « فونتينبلو » حيث كان يقيم ملك فرنسا حدثت مشاورات ومداولات فى الموضوع بين الملك وولى العهد والوزراء واستمرت وقتا طويلا ، وتشعبت الآراء ، وأشار تورسى وزير الخارجية إلى أنه سيترتب على قبول فرنسا للوصية قيام حرب بلا شك .

وخرج ولى العهد عن صمته المألوف ونطق بالموافقة على الوصية لأن ابنه سيكون ملكا لاسبانيا ، فكان يريد أن يفخر طول حياته بقوله : « الملك أبى والملك ابنى » .

ولم تذع أسرار المداولات والقرارات التى اتخذت فيها إلا فى ١٥ نوفمبر أى فى اليوم التالى لاجتماع المجلس حيث ذهبت الأسرة المالكة إلى فرساى .

وفى صباح ١٦ نوفمبر اجتمع الملك بدوق أنجو ، واستدعى سفير

اسبانيا . فلما وصل أشار إلى الأمير الشاب وقال له « يمكنك أن تحيي مليكك ». فى الحال ركع السفير على ركبتيه طبقا للتقاليد الأسبانية وألقى باللغة الاسبانية كلمة ترحيب بالملك الجديد . ولما كان الأمير يجهل هذه اللغة فقد ناب عنه جده فى الرد على السفير ، وبعد ذلك أمر بفتح أبواب مكتبه على مصراعيها وسمح لجماهير المهنئين بالدخول إليها حيث كان يستقبلهم بكل جلال قائلا : أيها السادة ها هو ملك اسبانيا .

والتفت إلى حفيده وقال له أمامهم « كن أسبانيا طيبا وذلك بالتفانى فى أداء واجبك نحو الشعب الأسبانى الكريم ، ولكن تذكر أنك ولدت فرنسيا ، فاعمل على توطيد روابط الوئام والصداقة بين الدولتين ، وهى الوسيلة الوحيدة لضمان سعادتهما وابذل كل مافى وسعك لحفظ السلام فى أوربا » .

وشمل الفرح فرساى كلها ، وكان ولى العهد نفسه يضحك مع أنه ليس من عادته أن يضحك ، ولاشك فى أنه كان يجهل النبوءة التى تنبأ بها بعض المنجمين عنه وهى ، « ابن ملك وأبو ملك ولن يكون ملكا » .

كان هناك رجل واحد مقطب الجبين ترتسم على قسمات وجهه دلائل الحزن والحقد ، وهو سفير النمسا ، فقد كان يجهل سير الأمور ، وكل ماحدث أنه وصل فى نفس اليوم إلى فرساى ليخبر الملك بميلاد حفيد الامبراطور ، واستقبل فى قصر الرخام بالحفاوة

المعتادة ، ولكنه لاحظ أن رجال البلاط فى حالة غير طبيعية ، وسرعان ماعلم بكل شيء ، وأن فرنسا ستحصل على مزايا جديدة ، فبعد أن أدى مهمته غادر القصر والأسى يمزق قلبه .

واستمرت الأفراح أياما ، فقد كان فى فرساى ملكان ، وكان الملك الكبير لويس الرابع عشر يقدم لحفيده علنا كل الاحترام الواجب نحو ملك عظيم ، فتنازل له عن سرير كبير فى الغرفة الكبرى واتخذ مكانه على المائدة إلى يمينه ، كما كان والده يناديه بكلمة صاحب الجلالة ، كل هذا فى الظاهر ، ولكن كان يحدث فى السر غير هذا ، كان لويس يدرب حفيده على أعمال الملوك ويسدى له النصائح عن خبرة وتجربة وكتب له هذه النصائح ليتخذه كدستور له .

وقدم رسل من أسبانيا ليقدموا للملك الجديد فروض الطاعة والولاء ، وذكروا له أنه منح لقب فيليب الخامس وأن إعلان توليه العرش قوبل فى كل أنحاء المملكة بحماس منقطع النظير

كان هذا حادثاً تاريخياً عظيم النتائج ، فإن فرنسا وأسبانيا كانتا فى حرب مستمرة منذ عهد شارلكان ، لأن عرش مدريد كان يتولاه أمير من آل دوتريش ، وقد دأبت هذه الأسرة على العمل على إضعاف منزلة فرنسا ، فاليوم اتحد الشعبان اللذان تربطهما روابط الأصل والعادات كما تربطهما المصالح المشتركة ، وسيعيشان فى سلام تحت حكم ملكين من أسرة واحدة .

وهكذا نشأت العبارة التاريخية : « لقد زالت جبال البرينيه » . وهذه الجبال هى التى تفصل فرنسا عن أسبانيـــا ، وربما لم يقل لويس الرابع عشر هذه الكلمة . ولكنها كانت فى كل عقل وعلى كل لسان فى باريس ومدريد على السواء .

كان الأسبان سعداء بهذا الملك الشاب الذى لم يتجاوز السابعة عشر لأنه سيتسع أمامه الوقت لأن يندمج مع رعاياه ويفهم طباعهم وأخلاقهم ، لاسيما وأنه يختلف كل الاختلاف عن ملكهم الأخير المريض ، واعتقدوا أن الملك الشاب ستسدد خطاه لأنه يستطيع أن يستشير العقلاء ، كما أنه سيهتدى دائما برأى جده العظيم المجرب .

وفى ٤ ديسمبر سنة ١٧٠٠ رحل فليب الخامس إلى مملكته الجديدة ، ورافقه إخوته حتى الحدود . كانت الرحلة جميلة وموفقة ، ففى كل مدينة وقرية كان النبلاء والأعيان ورجال الدين يهرعون لاستقباله والترحيب به ، بالقاء الخطب الرنانة ، ومن طريف مايروى فى هذا الصدد أنه لما وصل إلى قرية « مونت ليرى » تقدم إليه كاهنها على رأس وفد من سكانها وقال له :

مولاى ! أن الخطب الطويلة لاقيمة لها لأن الخطباء يضايقونكم بكلامهم الأجوف الممل ، ولهذا رأيت من الأنسب أن أنشد أمام جلالتكم هذا النشيد :

كل سكان شاتر ومونت ليرى

مسرورون ومبتهجون لرؤيتكم بينهم
فأنت حفيد لويس العظيم
فليكن الله معك وليمنحك أميراً لطيفا
وأن تبقى بيننا على الدوام
وتحكمنا مائة عام

الكاهن يلقى قصيدته على مسامع فليب الخامس

سر الملك كل السرور من هذا النشيد الطبيعى الخالى من التكلف ، فقال للكاهن : أعد ، وأطاع الكاهن وأنشد نشيده مرة أخرى بحماس أعظم ومرح أكثر ، فأمر الملك باعطائه عشر قطع ذهبية ، فلما أخذها قال : « أعد » . وأعجبت الملك هذه الكلمة الساذجة فأمر بمضاعفة المبلغ له .

وعلى نهر « البيداسو » فى المكان الذى استقبل فيه لويس الرابع عشر مارى تيريز دوبريش لأول مرة ، والذى نجم عن زواجه بها

حادث اليوم ، ترك الملك دون بورجونيا ودوق برى ، واستقبله الحرس الأسبانى الذى جاء لهذا الغرض من بايون وعبر النهر ، ولما وصل إلى مدريد وجدها مفروشة بالأبسطة الجميلة . ووضع السكان لوحات جميلة على المحال والدور كما أقاموا أقواس النصر فى كل مكان ، وعندما وصل الملك إلى القصر خلع الزى الفرنسى وارتدى الزى الأسبانى واستقبل رعاياه وحاز اعجاب الجميع لبشاشته ومظهره الفاتن ، وإنما كل ماوجه إليه من لوم أنه حافظ على قواعد الأدب الفرنسى التى لم يألفها الأسبان . فأخذ يعمل على الإلمام بكل تقاليد البلاط الأسبانى التى تحوى موضوعات تثير الدهشة ، منها أن الكاهن الأعظم يسمى بطريرك الهند ، فى حين أنه لايعرف شيئا عن الهند وأميرال قشتاله ( الكونت دى ملهار ) وهو أميرال بالوراثة يسمى أميرال الهند ، وهذا اللقب يخص ذرية كرستوف كولمب .

ومن أهم رجال البلاط المركيزدى مانسيرا ، وكان فى السادسة والثمانين وإنما يلوح لمن يراه أنه فى نصف هذا السن ، وعرف منه الملك أنه لم يأكل خبزا من خمسين سنة وأن كل غذائه يتكون من الفاكهة والشكولاتة والماء العذب .

وعلى ذكر الشكولاته ، نروى هذا الحادث الطريف ، لأنه أفاد الخزانة العامة :

حدث عند وصول الملك أن جاء إلى إحدى الموانىء الأسبانية أسطول صغير من أمريكا يحمل كثيراً من البضائع الثمينة ، وكانت إحدى الشحنات تتألف من ثمانية صناديق كبيرة كتب عليها أنها تحتوى على شكولاتة باسم الآباء اليسوعيين . وكانت الصناديق ثقيلة جداً ، فبذل مجهود كبير حتى تم انزالها إلى الرصيف ، وشك موظف الجمرك المختص فيها ففتح أحد الصناديق فوجده مليئا بقطع الشكولاتة ولكن كانت ثقيلة وبشكل غير مألوف فكسر قطعة منها فتجلى له السر وهو أن الشكولاته كانت محشوة بالذهب فأبلغ الأمر إلى اليسوعيين وأظهروا أسفهم وأكدوا أنهم لايعرفون شيئا عن هذه الرسالة ، وزعموا أنها مكيدة مدبرة لهم ، فصودر الذهب لمصلحة الملك الذى ضحك كثيرا من عناد هذه الطائفة القوية ، مع أنه در عليه مالا وفيرا .

وبعد فترة قصيرة من اعتلاء فيليب الخامس عرش أسبانيا أعلن زواجه بالابنة الثانية لدوق ساڤوى أخت دوقة بورجونيا زوجة أخيه بعد أن وافق جده لويس على هذا الزواج .

وكان كل شيء فى بلاط مدريد يسير حسب إرشادات ونصائح ملك فرنسا حتى شاع فى كل مكان أن حكومة أسبانيا فى فرساى .

وهكذا حق القول أنه لم يعد لجبال البرانس وجود

# الباب الثالث عشر

## الأيام القاتمة

لم تحقق فرنسا بارتباطها باسبانيا الآمال العظيمة التى كانت ترجوها من هذه الفرصة التاريخية النادرة ، فلقد نجم عن اعتلاء حفيد لويس الرابع عشر عرش اسبانيا وخضوعه التام لجده وتنفيذه كل أوامره ونصائحه ، ظهور مشاكل خطيرة فى اسبانيا ناشئة عن تصرفات ملكها الجديد الذى لم يستطع معرفة ميول ونفسية شعبه فضلا عن أنه لم يعد الإعداد الواجب لمثل هذا العمل ، لأن تربيته كانت تهدف إلى أن يصبح خاضعا لإرادة أخيه الكبير ولهذا وقع تحت تأثير جده عما أثار رجال البلاط الاسبانى وكبار المستشارين ورجال الدولة فلم يعاونوه بإخلاص بل أخذوا يدبرون الفتن والدسائس ويؤلبون الأمراء والحكام والشعب عليه .

ومن أغرب ما يروى عن سوء نيات رجال البلاط والدولة نحو الشاب أنهم كانوا يستغلون جهله بالتقاليد والعـــادات الأسبانية فيفرطون فى أداء واجباتهم ويهملون فى كل شىء ، ويتعمدون إضعاف هيبته ومنزلته ، وهم ينسبون هذا التفريط وهذا الإهمال إلى العادات وإلى التقاليد ، فمن ذلك أنه عندما كان يتوجه إلى الاجتماعات كان

يستقبله فيها ضباط الحرس ثم يقدمونه إلى رئيس وأعضاء الهيئة أو الجمعية الذين ينتظرونه داخل مكان الاجتماع فيحلفون بين يديه يمينا غريبا يبدأ بهذه العبارة : نحن المساوين لك ونملك من السلطة قدر ما تملك ثم يقولون له أنهم مستعدون للخضوع والولاء للتاج وإنما بشروط معينة يذكرونها له ، ويختتمون شروطهم بكلمات تهديد ووعيد.

وبعد أن يحلف الجميع هذا اليمين المثير للدهشة ، يقدمون الملك أريكة ليجلس عليها ، وهذا يبين مدى استهتار القوم ، فلم يجد ولاء واخلاصا إلا من أهل ولاية قشتاله وكانت أقل ولايات اسبانيا ثراء وإنما أعظمها شجاعة وإقداما وأكثرها وفاء .

والواقع أن الشعب الأسباني في ذلك الوقت كان شعبا منحلا ، ضعيفا ، فاتر الهمة ، محبا للترف ، ميالا للكسل والتراخي،وهو الذي كان شعبا نشيطاً ، شجاعا قادراً على الذود عن أرضه والدفاع عن نفسه والثبات أمام الغزاة . ويعود السبب في هذا التحول إلى أنه أثرى ثراء كبيرا بعد أن اكتشف كريستوف كولمب أمريكا ، فقد كانت المستعمرات الجديدة ترسل إلى أسبانيا السفن المشحونة بالذهب،فعم الثراء والرخاء واعتمد الناس على الذهب الأمريكي وتغالوا في الترف والتنعم بمباهج الحياة ، مما أدى إلى اهمال موارد البلاد الطبيعية فضعف الإنتاج الزراعي والصناعي وضعفت معها الهمم والعزائم، يضاف إلى ذلك كثرة الحروب التي كان يقوم بها الأمراء للغزو والفتح لزيادة ثرواتهم وأملاكهم .

كان يمكن لأسبانيا أن تنهض وتتحد لو أن لويس الرابع عشر اهتم بتطبيق مشروعات الإصلاح الناجحة التى نظمها فى فرنسا وكان يمكنه أن يستفيد فيها الذهب الأمريكى ، ولكنه لم يجد أمامه فرصة للتفكير فى الإصلاح لأن أوروبا كلها تحالفت ضده بمجرد أن تبوأ حفيده عرش اسبانيا ، وأعدت العدة لحرب ضروس سميت حرب الوراثة الاسبانية ، وكانت أفظع وأشد حرب شهدها لويس الرابع عشر فى خلال حكمه الطويل .

لقد بذل ملك فرنسا كل ما فى طاقة البشر من جهد وقوة لمنع نشوب الحرب فاتبع سياسة التهدئة والمسالمة ولكن بدون جدوى فإن دولة أوربا كلها عقدت النية على محاربة فرنسا للقضاء عليها ، فمن أعماله لتوطيد السلام أنه حدث عقب تولى فيليب الخامس حكم اسبانيا أن كانت البلاد الواطئة التابعة لأسبانيا تضم حاميات هولندية كثيرة ، فعهد الحكام الاسبانيون بهذه الحاميات إلى الفرنسيين على اعتبار أنهم حلفاء ، وكانت تتألف من اثنتين وعشرين فرقة كاملة التسليح والعتاد فأسرها الفرنسيون ، وكان وقوعها فى الأسر وإبعادها عن العمل ، يخرج هولندا من الحرب ، فما كان من لويس الرابع عشر إلا أن أمر باطلاق سراح الفرق الأسيرة وإعادتها بكامل معداتها إلى بلادها .

ولكن بعد رجوع هذه الفرق إلى بلادها هاجمت هولندا فرنسا وكانت قد تحالفت مع انجلترا والولايات الألمانية ومنها بروسيا ولم يرض الامبراطور أن يعترف بفيليب الخامس فأعلن الحرب عليه

بصفته « دوق انجو » .

اضطرت فرنسا إلى حمل السلاح لتحاوب حلفاء أقوياء ، فى وقت يعوزها فيه القواد الأبطال والجنود الأشداد . لم تجد لوفوا العظيم على رأس الجيش ، بل وجدت مكانه قائدا ضعيفا يدعى «شاميلار» لايعرف إلا لعب البلياردو وكان يزعم أنه يستطيع أن يدير العمليات الحربية دون أن يتحرك من فرساى ، ولم تجد لاتورين ولا كوندية ولا لكسمبرج ، لقد حل محل هؤلاء الصناديد فاندوم ، وكاتينسا ، وفيلار ، وبيرفيك والماريشال فيلروى وكان الملك بصداقته الشخصية به يرفض الاعتراف بعجزه وعدم أهليته للقيادة ، والماريشال دى بوفيليه ، ومارسان ، وتيسيه الذى كان أكثر مقدرة فى الدسائس عن ادارة الحرب .

وكان يقود جيوش النمسا الأمير أيوجين دى ساڤوى ، أصغر أبناء أخت مازاران ، وكان من أعظم قواد النمسا . كما كان يقود الجيوش الانجليزية القائد مادلبورو .

بدأت الحرب فى مصلحة فرنسا ، ففى ساحة الراين انتصر فيلار فى فرايد لنجن ثم فى هوشتدت فى بافاريا . ولسوء الحظ استدعى إلى فرنسا لقمع الثورة التى قام بها الهيجونوت المعتصمون فى جبال السفن والذين استغلوا رحيل الجيوش الفرنسية إلى ميادين القتال فثاروا وطلبوا النجدة من الخارج .

وبدأ عهد النكبات ، ففى ساحة هوشتدت هزمت الجيوش

الفرنسية هزيمة ساحقة وطوردت فلولها حتى الألزاس، وهزم مارلبورو جيش فيلروى فى راملييه كما هزم الأمير ايوجين جيوش مارسان فى توران . واستولى الانجليز على جبل طارق ولم يستطع الأسبان استرداده .

واضطر فيليب الخامس إلى الهرب مع الملكة والالتجاء إلى فرساى ودخل مدريد شارل أرشيدوق النمسا المطالب بعرش أسبانيا وتسمى باسم شارل الثالث فاستقبله الشعب هاتفا : « يحيا فيليب » ، كما اعتدى بالضرب المبرح على أنصار شارل هذا . وتوالت هزائم فرنسا فى الفلاندر وسقطت ليل فى ايدى الحلفاء .

تألمت الأسرة المالكة الفرنسية مما حـــل بالوطن فانتهى عهد الحفلات والولائم التى اشتهرت بها فرساى ، وتوفى شقيق الملك ولم يبق فى القصر إلا الضعفاء والمسنون من رجال الحاشية وذهبت العناصر الشابة إلى الحرب ، واضطربت الشئون الاقتصادية والمالية ، وأخذ الرخاء الذى عم فرنسا فى أواخر القرن السابع عشر فى الزوال ، وساهمت الطبيعة بنصيب كبير فى المحن والنكبات فاشتد البرد إلى درجة لم يسبق لها مثيل . واستمرت هذه الحالة أعواما متوالية أصيبت فيها المحصولات بالتلف الشديد وفاضت الأنهار فاغرقت الأخضر واليابس وقضت الضرورة باستيراد القمح من بعض الدول بأسعار فاحشة وتكاليف باهظة لمنع حدوث مجاعة .

وفى شهر نوفمبر سنة ١٧٠٩ تحسن الجو قليلا فارتفعت درجة

الحرارة وازدهرت الأشجار وفجأة اكفهر الجو وتكاثفت الغيوم وتساقط الثلج بشدة غير مألوفة مدة شهرين فقضى على كل الآمال التى عقدت عند ما تحسن الجو . وتبع ذلك ذوبان الثلوج الذى أدى إلى فيضان الأنهر مرة أخرى واشتد البرد من جديد بشكل محزن حقا ، فعم القحط وحدثت مجاعات تفتت الأكباد ووقعت حوادث أدت إلى خسائر مروعة فى الأرواح والأموال وأخذ الفقراء يلجأون الى المستشفيات العامة لكى يجدوا كسرة من الخبز وقليلا من الدفء ولكنها كانت ترفض قبولهم بعد أن ازدحمت بهم فكانوا يهلكون فى الشوارع من الجوع والبرد .

وعمد الملك إلى علاج هذه الحالة الأليمة فأصدر مرسوما بفرض ضريبة جديدة لمساعدة البؤساء والمحتاجين ولكن الأشخاص الذين فرضت عليهم هذه الضريبة عجزوا عجزا تاما عن دفعها فلم تأت بأية ثمرة . وتلاشت موارد الإحسان والأعمال الخيرية وتساوى الأمراء والنبلاء ورجال المال والأعمال بالفقراء وعجزت الحكومة عجزا تاما عن إصلاح الحالة المالية والاقتصادية فأصبحت الطرق غير صالحة والكبارى والجسور مهدمة ، وشلت الحركة التجارية وعجز كل فرد عن الوفاء بديونه وتسديد الضرائب المفروضة عليه ، حتى أن أغنى أغنياء فرنسا ، صموئيل بوناردا ، الذى كانت ثروته لا تعد ولا تحصى لعظمتها أشهر إفلاسه فقضى قضاء تاما على كل طبقة « البورجوازى » فى ليون ، وقامت ثورات بسبب الجوع وكثر المحتكرون وتجار السوق

السوداء فى كل مكان . ولكن سرعان ما تنبهت الحكومة فأخذتهم بمنتهى الشدة والقسوة وأصدرت أوامر حازمة بمنع اختزان المواد الغذائية ورفع أسعارها ومن خالف الأمر وقبض عليه متلبسا حكم عليه بالموت ، وكان الناس يجتمعون تحت نافذة الملك فى فرساى وهم يصيحون : الخبز ... الخبز ... نريد الخبز ....

لم يكن من السهل تجنب وقوع الكارثة إلا بمعجزة ، وحاول لويس الرابع عشر القيام بهذه المعجزة فاستدعى ذيمارت لإصلاح الحالة المالية وتنظيمها ولكنه ، كما قال عنه فولتير : « خرب المالية بدلا من إنقاذها » فأخذ الملك يبحث عن كل وسيلة للحصول على المال فوفق إلى بعض الطرق التى أمكنه بها الحصول على أموال ، من ذلك أنه كان قد باع إلى المكسيك أثناء حرب حلف أوجسبرج جانبا من الأطقم والأوانى من الذهب والفضة ، فأرسل إليها كل ما كان لديه منها مقابل نقود . وحذا حذوه كثير من الأمراء والعظماء ، وعقدت الحكومة قرضا وطنيا وأخذت تبيع قرارات العفو العام عن المختلسين والمرتشين ، كما قررت بيع بعض أملاكها وأخيرا عملت ما كان يجب عمله منذ وقت طويل وهو عزل شاميلار

ولما استدعى الحال تجنيد قوات جديدة أقبل الرجال من جميع الطبقات على الانخراط فى سلك الجندية لافرق بين عظيم وخامل . وكانوا يبغون من وراء ذلك الحصول على الخبز ، لاشىء سوى الخبز ، فقد كان هدف الجميع على السواء .

ولما وجد لويس الرابع عشر أن الأحوال تتفاقم اقترح المفاوضة مع الحلفاء على أساس أن يضحى بعرش حفيده ملك أسبانيا من أجل السلام ، وبعث بهذا الاقتراح إلى الحلفاء ولكنهم رفضوه رفضا باتا فبرهنوا بذلك على أنهم يريدون الاستمرار فى الحرب والقضاء على فرنسا . فلم يكن أمام فرنسا مفر من الدفاع والاستماتة فى الذود عن حياضها . فتولى « فيلار » قيادة الجيوش يعاونه بوفليه ، وكانت الجيوش ناقصة المعدات ، ويعوزها الكثير من المؤن ولكنها كانت تحب قائدها فسهل هذا الحب مهمته وأصبح قادرا على بذل كل ما فى طاقته لإنقاذ الوطن .

تقدم الجيش الفرنسى إلى ما لبلاكيه وأخذ يستعد بالمؤن والذخائر على قدر ما تسمح به الأحوال ولكن العدو قام بهجوم مفاجىء ، فترك الجنود الفرنسيون جانبا كبيرا من مؤنهم وطعامهم على أنهم فى مسيس الحاجة اليها لكى يستطيعوا الجرى وسلاحهم فى أيديهم وتفوقوا على الأعداء وتقدم فيلار على رأس المشاة وشن هجوما عنيفا وكاد أن يكسب المعركة لولا أنه أصيب بجرح فى ساقه فترك القيادة لمساعده فتحول النجاح إلى هزيمة وتقهقر الجيش الفرنسى تاركا فى ساحة الوغى ثمانية الآف قتيل ، فى حين فقد العدو أكثر من عشرين ألف رجل .

طلب الملك الصلح مرة أخرى عارضا أسخى الشروط ومستعدا لقبول أقصى التضحيات ، على شرط أن يقبل الحلفاء عدم تمزيق أوصال فرنسا ، واقترح زيادة على ذلك التنازل عن حقوقه فى بعض المقاطعات

وترك أسبانيا وشأنها ، ولما وصل مندوبوه إلى الهولنديين استقبلوهم بكل خشونة وقسوة وتعمدوا أن يظهروهم بمظهر المتذللين المقهورين وعاملوهم بكل إذلال ومقت وعرضوا عليهم الشروط التى ان يحيدوا عنها قيد أنمله وكانت تنطوى على أنهم لا يقبلون الصلح إلا على أساس أن يسلم الملك أحسن المقاطعات الفرنسية ، ومقاطعات معينة على الحدود ويخلع بنفسه حفيـــده عن العرش الاسبانى ويسرح الجيش الفرنسى .

لم يقبل الملك هذه الشروط المجحفة التى تتضمن إذلال فرنسا وتجريدها من سلاحها ووضعها تحت رحمة أعداء لا يتورعون عن مهاجمتها وهى عزلاء فيقضون عليها قضاء مبرما ووجد أن السلام المنشور يكلفه ما لاطاقة له به .

وتحرجت الأحوال الداخلية إلى أسوأ حد فانتشر البؤس والذعر فى كل مكان وبلغ السيل الزبى ، وقام حزب بزعامة مدام دى مانتينون ينادى بضرورة عقد الصلح مع الأعداء بأى ثمن لأنه السبيل الوحيد لإنقاذ الشعب .

ولقد صدق حقا من قال أن المصائب لا تأتى فرادى ، فكأنما الدهر قد تعهد على أن يلقى بكل ما فى جعبته من مصائب ونكبات على لويس الرابع عشر . وهنا ينطبق عليه هذا القول : ومن سره زمن ساءته أزمان . فبالرغم من كل الويلات المحيطة به فقد حدث حادث فجائى هد من كيانه فإن ولى العهد أصيب يوم ٨ ابريل ســـنة ١٧١١

بوعكة بسيطة اضطر بسببها إلى ملازمة الفراش ولم يلبث أن توفى فى ٥ مايو ، وتبع هذا الحادث حوادث مشابهة فى نفس العام .

حزن الملك حزنا شديدا على وفاة نجله وولى عهده ، فاستسلم لمشيئة القدر وعين دوق بورجونيا وليا للعهد وأخذ يدربه على المهام الشاقة التى تنتظره ، وكان هذا الدوق محبوبا من الشعب ، ومجدا فى عمله ، ومحبا للعداله والحق ، ويميل إلى الأخذ بناصر الضعيف والمحتاج . وكان الملك وهو يشعر بقرب انتهاء حكمه يقول عنه : إنه سيؤدى كل واجباته أحسن منى » .

وفى ٥ فبراير سنة ١٧١٢ ، أصيبت زوجة ولى العهد بالحمى فى فرساى ، وتألم الملك كثيرا لمرضها لأنه كان يحب من كل قلبه هذه الأميرة الفاتنة التى تعهدها برعايته منذ أن قدمت إلى فرنسا وهى صغيرة ، وكان يذهب لعيادتها عشر مرات فى اليوم الواحد وأوصى بأن يبذل الأطباء كل ما فى طاقة العلم والبشر لإنقاذها ولكن المعالجين قرروا أنهم يجهلون المرض الذى أصيبت به فتوفيت بعد عشرة أيام ولحق بها زوجها ولى العهد بعد ثلاثة أيام على وفاتها ، وكأنما كانا قد اتفقا على أن يعيشا سويا أو يموتا سويا ودفن بجوار زوجته فى مقبرة سان دنيس .

ولما عاد الملك إلى فرساى ليتقبل التعازى لاحظ المتصلون به أن شخصيته تغيرت تغيرا تاما .

ترك ولى العهد طفلين صغيرين هما دوق بريتانى فى الخامسة ودوق

انجو الرضيع وعندما مرضت والدتهما نقلا مع مربيتهما دوقة فانتادو إلى قصر فانسين حيث الجو أنسب لهما من جو فرساى ولكى لا تصيبهما عدوى المرض . وعين دوق بريتانى وليا للعهد ومن أغرب ما حدث أنه بعد دفن والدهما بيوم واحد أصيب ولى العهد الجديد بوعكة وظهرت عليه أعرض المرض الغريب الذى لم يستطع أن يعرفوا عنه شيئا به . وكان أخوه دوق انجو مصابا بالحمى فأخذته مربيته من أيدى الأطباء ووضعته فى غرفة خاصه وتولت بنفسها العناية به فشفى من مرضه لسبب واحد وهو أنه لم يتبع علاج الأطباء وعين وليا للعهد باسم لويس وقدر له أن يضع على رأسه تاج فرنسا .

ذهل الفرنسيون مما حدث وحاروا فى تعليل وفاة ثلاثة أمراء عينوا لولاية العهد فى أقل من سنة ، وأثيرت من جديد مسألة السموم التى كانت موضع حديث الناس وخوفهم منذ ثلاثين سنة واعتقد الناس اعتقادا راسخا أن الأمراء الأربعة ماتوا بالسم ، والدليل على ذلك أن دوق انجو لم يمت لأنه لم يتناول أى دواء وأخذوا يتساءلون عن صاحب المصلحة فى ارتكاب هذه الجرائم الوحشية ، وحامت الشكوك حول دوق أورليان بن فيليب شقيق لويس الرابع عشر وقويت الشبهات حوله ، وكانت جماهير الشعب الحزين تجتمع أمام القصر الملكى تندب الأمراء المتوفين وتتوعد من تثبت إدانته فى هذه الجرائم بالقتل والتنكيل .

لما رأى دوق أورليان هذا السخط الناشىء عن مجرد شكوك عرض

أن يقدم نفسه للتحقيق معه فأمر الملك بأن يجرى تشريح الجثث أولا ثم يعرض عليه تقرير الأطباء لإجراء ما يلزم على ضوء هذا التقرير وكان الأطباء يميلون إلى تضليل الشعب عن قصة السموم ليبعدوا عن أنفسهم الوصمة بالجهل ، فبعد التشريح قرر ماريشال جراح الملك الخاص أنه لم يجد شيئا وأن الوفاة طبيعية نتيجة الإصابة بحمى خبيثة وأيده فى رأيه الاخصائيون الذين اشتركوا معه فى عملية التشريح .

وأسدل الستار على هذه المأساة الدامية .

لم يكن هناك وقت للاسترسال فى الحزن والبكاء فإن العدو يطرق الحدود ، وأدرك الملك تلهف الشعب على السلام فرأى أن يبين له أنه لم يدخر وسعا فى طلب الصلح لإقرار السلام فأمر بأن تعلن فى جميع أنحاء البلاد شروط الصلح التى أملاها الأعداء فلما علم بها الشعب ورأى فيها الإذلال وإهدار الكرامة والعزة أو بمعنى أوضح موت فرنسا ، قويت عزيمته وإرادته والتف حول مليكه للدفاع عن الوطن بكل قوة وحماس ، وتفانى فى إظهار الولاء والإخلاص للعرش فقد أخذ الفلاحون من أقصى البلاد يفدون إلى فرساى ليضعوا أنفسهم رهن إشارة الملك ، وجاء فلاحون من إقليم « أوفرن » البعيد سيرا على الأقدام يحملون معهم المجوهرات التى ورثوها عن أسلافهم ليقدموها للملك للإنفاق على الجيوش المحاربة ، كما تعهد بعض العظماء والأعيان بإعداد فرق من المحاربين على نفقاتهم الخاصة .

ولما أعيد تنظيم الجيوش استقبل الملك فى قصر مارلى الماريشال « فيلاز » قبيل رحيله إلى ميدان القتال وتلطف معه فى الحديث ثم بكى متأثرا مما حل به من نكبات ، وقال له : إنك تعلم حالتى وظروفى سيدى الماريشال . فقلما يصاب الإنسان بمثل ما أصبت به . لقد فقدت أربعة أعزاء ، وإنما يجب أن تنسى الأحزان ونفكر فيما يجب عمله لصالح المملكة .

وبعد أن فكر قليلا استطرد قائلا :

إنى أوليك كل ثقتى ، وأعهد اليك بجيشى وأعتمد عليك فى إنقاذ فرنسا ، إنى أعرف حماسك وحالة جيوش فربما لا يحالفك الحظ ، فإذا شاءت الأقدار أن يحدث هذا للجيش الذى تتولى قيادته فكيف يكون شعورك نحو الدور الذى يجب على أن أقوم به فى هذه الحالة .

صمت الماريشال ولما لم يشأ أن يدلى برأيه فقد واصل الملك كلامه ، فقال لا يدهشنى صمتك . ولا بد أنك لا تريد أن تتكلم بصراحة ، ولكن فى انتظار أن تدلى برأيك أحيطك علما برأيى .

قال الماريشال : أن جلالتكم تحاولون أن تخففوا عنى عبء العمل ولكن الأمر يستحق التروى والتدبير .

فرد عليه الملك قائلا : حسنا ، إنى أعرف ما يجول فى أفكار رجال الحاشية أنهم يريدون أن أتراجع إلى « بلوا » ، ولا أنتظر حتى يقترب جيش الأعداء فى باريس ، وقد يكون هذا ممكنا لو أن جيشى هزم . أما أنا فإنى متأكد أن جيوشا قوية كجيوشنا لا يسهل هزيمتها

لأن الجزء الأكبر من جيشى لا يستطيع التقهقر إلى السوم فإن هذا النهر صعب العبور وفيه أماكن كثيرة يمكن التحصن فيها فاتوقع الذهاب إلى « بيرون » أو إلى سان كنتان وفيها أحشد كل ما عندى من فرق لآخر مجهود معك ، فإما أن نموت معا وإما ننقذ الوطن .

استؤنف القتال وأحرزت جيوش فرنسا انتصارات فى بعض الميادين ، كما انتصرت الأساطيل الحربية بقيادة دوجاى تروان انتصارا حاسما ، فشجع هذا الانتصار البحرى الجيوش البحرية على أن تستميت فى القتال لتتوج هامتها بأكاليل النصر أسوة بالقوات البحرية .

ورأى الحظ أن يبتسم لفرنسا بعد هذه الغضبة الطويلة فأخذت الأمور تسير لمصلحتها ، فقد حدث على غير انتظار أن آن ملكة انجلترا التى تبوأت العرش عقب وفاة جيبوم دورانج غضبت على القائد « مارلبورو » لأنه صرح مرارا بعزمه على استعمال كل الأساليب الممكنة لكى تستمر الحرب الضروس بشدة متناهية ، فاستاء الشعب البريطانى من تصريحات القائد وكان قد سأم الحرب التى كبدته تضحيات ونفقات كثيرة بلا طائل وفرضت عليه ضرائب إضافية كبيرة أرهقته إرهاقا مرا ، فضلا عن الخسائر المروعة التى كان يوقعها الأسطول الفرنسى بالسفن التجارية والحربية الإنجليزية فى البحار ، فسارت جماهير الشعب فى شوارع وميادين لندن تهتف للسلام وتطالب بوقف القتال وعقد الصلح كما كانت الوفود التى تمثل طبقات الشعب تذهب إلى القصر الملكى لنفس الغرض ، فاستقر رأى ملكة انجلترا على عقد

معاهدة مع فرنسا والخروج من الحرب وبعثت براهب انجليزى من رجال البلاط الانجليزى إلى باريس يعرض على وزير خارجيتها مقترحات الملكة .

وفى الحال عينت فرنسا مندوبين فوق العادة رحلوا إلى لندن لإجراء مفاوضات الصلح التى سارت بكل نشاط لأن كلا من الطرفين المتفاوضين كان راغبا رغبة صادقة فى إنهاء حالة الحرب وعقد معاهدة صلح بأى شكل كان وبأسرع وقت ممكن خوفا من أن تموت الملكة المريضة فجأة فتتغير الأحوال وفقا لأهواء الملك الجديد إذ ربما لا يرى داعيا للصلح فيفضل الاستمرار فى الحرب ولكن المفاوضين بذلوا كل ما فى وسعهم لتقريب وجهات النظر فاتفقوا على شروط المعاهدة ووقعوها فأعلنت الهدنة وخرجت القوات البريطانية والهولندية من الحرب .

لم يبق بعد ذلك إلا جيوش الإمبراطورية وحلفائهـــا بقيادة الأمير أيوجين الذى نظم فرقه وخطوطه وأعد قوات هائلة أمام جيش فيلار . ولكن الحظ ظل يحالف فرنسا ، ذلك أن كاهنا ومستشارا من مدينة ذواى ، كانا يسيران معا فى المكان الذى يفصل بين الجيشين المتحاربين وهما جيش الأمير أيوجين وجيش فيلار ، وعندما اقتربا من قرية دينان ، لاحظا وجود نقط ضعيفة جدا فى خطوط أيوجين ، فتظاهرا بأنهما لم يشاهدا شيئا وواصلا سيرهما كما كانا واتجها نحو مركز القيادة الفرنسية وأخبرا القواد بملاحظاتهما فلم يضيع « فيلار » الوقت بل استفاد من رأى هذين الشخصين ووجه

هجومه بكل شدة نحو النقط الضعيفة فأخذ أيوچين على غرة واحرز انتصارا حاسما فى موقعة ديناان الشهيرة ، واستولى على مارسيين التى كانت فيها مخازن ومستودعات الأعداء فاخذ كل المؤن والذخيرة التى وجدها فيها كما غنم أكثر من مائة مدفع واسترد مدينة ليل العظيمة

وأحدث هذا الانتصار الباهر الشعور المنتظر فى فرنسا ، فقد امتطى لويس الرابع عشر صهوة جواده وأخذ يعدو بسرعة فى شوارع باريس مناديا بأعلى صوته :

أولادى . أبنائى ... النصر ... النصر .. السلام .

وأدى انتصار ڤيلار الى مفاوضات الصلح ولم تستمر طويلا فانتهت بابرام معاهدة « أوترخت » التى وقعها فى سنة ١٧١٣ مندوبو فرنسا وانجلترا وهولندا وبروسيا وسافوى والبرتغال .

أما الأمبراطور العنيد فقد واصل القتال ولكن جيوشه هزمت هزائم متلاحقة فى شبير وورمس ولاندو وفريبورج فاضطر الى توقيع معاهدة « راشتادت » كما وقع الأمراء الألمان معاهدة بادن سنة ١٧١٤

لم تخرج فرنسا من هذه الحروب الطويلة كسيرة الجناح أو ضعيفة الهيبة فى الخارج بل حافظت على منزلتها ومجدها بين الأمم ، وكل ما ترتب عن هذه المحن انها فقدت بعض المستعمرات .

وأما أسبانيا فقد فقدت كل أملاكها فى أوربا كما فقدت الى الأبد جبل طارق وأخذت الشمس التى احتجبت زمنا طويلا وراء الغيوم المتلبدة تبعث بابتسامتها الفاتنة على أرض فرنسا .